المبحث السادس

خليل مطران

شاعر العربية الإبداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الطور الاول من حياة مطران

(توطئة) ينتسب خليل مطران الى أسرة عربية مسيحية عريقة الأصل تعرف ببطن «أولاد نسيم» ترتقي بنسبها الى شعبة «غسان». [1] ولم تكن اقامة بطن «أولاد نسيم» ثابتة فقد كانت تتنقل تماماً كأصولها — من قبائل الغساسنة — في الاقليم الذي حول دمشق وتدمر وحمص. وكانت بعض أفخاذ بطن «أولاد نسيم» تصل في جولاتها بأرض الشام شمالاً حتى حمص بسوريا، وجنوباً حتى صفد بفلسطين، ولا تزال من بطن «أولاد نسيم» أفخاذ الى اليوم في أرض حوران بجبل الدروز وبوادي البقاع بلبنان الكبير

وقد استطاع بطن «أولاد نسيم» أن يحتفظوا بالأصل المسيحي في عقيدتهم، رغم الصعوبات التي كانوا يلاقونها ككل اقلية في عصور الظلمات. وكان ان سيم من أفراد البطن على قومه مطران، عرف بيته بآل المطران. وحدث أن سار منهم رهط شرقاً حتى انتهى الى العراق وقضى جانب من هؤلاء من العراق حتى انتهوا الى ما بين النهرين. غير ان هذا الرهط افتقد بابتعاده عن موطنه قوة العصبية القبلية التي كانت تربطهُ بالنصرانيّة قبل الاسلام واعتنقه. وكان من هؤلاء الذين أسلموا شاعر زمانه ابو محمد المطراني الذي عاش في بخارى في القرن

---

(١) الغساسنة شعبة من العرب أسسوا دولة في الجاهلية في الشام متأثرين بالمدنية اليونانية؛ والاخبار المروية عنهم في كتب العرب قلّ أن تمد الباحث بما يستطيع أن يؤلف من شتاتها هيكلا تاريخياً، الا أنها بالاضافة الى ما تجده من نتف مبثوثة في كتب المؤلفين البيزنطيين، يمكن أن تساعد على تكوين فكرة عامة عنهم. ويعتبر مقال المستشرق تيودر نولدكه Th. Nöldeke المعنون Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's خير ما كتب عنهم وتجده في Abhand. d. Kon. Preuss. Akad. d. Wissenschaften, Berlin 1887

الخامس للهجرة .[١] على ان هذا الرهط الذي ذهب شرقاً واعتنق الاسلام ذاب مع الزمن في مجموع المسلمين حتى غاب خبره في التاريخ . اما العشائر التي بقيت في مواطنها الأولى — بلاد الغساسنة — جوالي حمص وتدمر ودمشق ، وما صاقب تلك المدائن من الأصقاع، فقد احتفظت بعصبيتها وحافظت على الأصل المسيحي في عقيدتها ، وان افتقدت مع الزمن اسمها الجديد ورجعت تتخذ لنفسها اسم « أولاد نسيم »[٢]

وحدث في القرن السادس عشر ان انتقل من حمص الى الجنوب بعض الافخاذ من بطن « اولاد نسيم » واستقرّت جموعها ببعلبك ووادي البقاع . وكان أن سيم من هؤلاء مطران على بعلبك عام ١٦٢٨ باسم المطران «ايفانوس». وحيث أن المطرانية في ذلك الوقت لم تكن لها دار بيعة يجلس فيها المطران ليتصرف في شؤن رعاياه الروحية ، فقد كان المطران — عادة — يتخذ من بيته داراً للمطرانية. من هنا عرف ابناء المطران ايفانوس — الذي سيم مطراناً وهو أرمل وذو أولاد — باسم المطران وعرف بيتهم ببيت المطران[٣] وهكذا جدد التاريخ في بطن «اولاد نسيم» بيت المطران، للمرة الثانية، ومن هذا البيت الجديد خرج خليل مطران الى الحياة

نشأ من اولاد المطران ايفانوس أسر تكاثرت أفرادها مع الزمن ، بقي بعضها مستقرّاً في بعلبك ووادي البقاع وما جاورها من البطاح والبعض الآخر غادرها ، فسار رهط منهم شمالاً حتى انتهى الى حمص واستقرّ بها ، ونزلت جماعة من هذا الرهط زحلة وبقيت فيها . ومضى رهط منهم جنوباً الى فلسطين وعاش فيها . ومن هذا الرهط قام جبران المطران المعروف بكحيل في القرن السابع عشر ورحل الى مصر ونزل دمياط وأسس فيها بيت كحيل المعروف[٤]

ويظهر ان هجرة بعض أفراد آل مطران كانت نتيجة لتكاثرهم من جهة ، ولما نزل بهم من التضييق من امراء بني الحرفوش الذين كان لهم السلطان على بعلبك ووادي البقاع[٥] . غير ان صراع الامراء الحرافشة فيما بينهم طيلة خمسة قرون من زمان أضعفهم ، وكان خروجهم المتوالي على ولاة الدولة العثمانية سبباً في ان مجرد الدولة العثمانية عليهم قوة في اواسط القرن التاسع عشر تغلبتهم وقضت عليهم نهائياً[٦] . غير ان القضاء على الاسرة الحرفوشية لم يقض على الروح الاقطاعية فقد تجمع أهالي مدينة بعلبك وسكان وادي البقاع جماعات حول أسر ذات نفوذ ومكانة[٧] وكان في طليعة هذه الاسر اسرة آل مطران[٨]

---

(١) النعاني في بيئة الدهر — طبع دمشق — ج ٤ ص ٤٥ — ٥٢ (٢) عيسى اسكندر المعلوف في الاخبار المروية في الاسر الشرقية (٣) ميخائيل موسى آلوف البعلبكي في تاريخ بعلبك ، بيروت ١٩٢٦ ص ١١٨ (٤) خليل مطران في كلام له عن المأثورات في آل مطران (٥) تاريخ بعلبك ، ص ٨٦ — ١٠٦ (٦) المرجع ذاته ، ص ١٠٦ — ١١١ (٧) المرجع ذاته ، ص ١١١ سطر ٧ — ١١ وص ١١٢ (٨) المرجع ذاته ، ص ١١٢ الفقرة ٣

— ١ —

نزل أجداد بيت المطران « بَعْلَبَكْ » في تاريخ قديم فاختفظ تاريخهم بتاريخ بعلبك و« بَعْلَبَكْ » والعامة تلفظها « بَلْبَكْ » مدينة من اشهر مدائن لبنان ، تقع شمالاً في وادي البقاع على سفح الجبل الشرقي من سلاسل جبال لبنان في خط عرض ٣٤° ١٠' شمالاً وطول ٣٦° ٩١' شرقاً علوّها عن سطح البحر ١١٥٠ متراً تقع على مسافة ٣١ ميلاً من دمشق على خط مستقيم الى الشمال الغربي ، ومن طرابلس ٣٢ ميلاً ومن قدمس ١٠٩ أميال . والمدينة متسلطة بموقعها على سهل بعلبك . وهو قسم من سهل وادي البقاع الفسيح الذي يمتد اكثر من خمسين ميلاً . وتقع المدينة على رأس المنحدر من الوادي الذي يعتبر أعلى سهول الشام ، ومنهُ تنحدر الاراضي شمالاً وجنوباً الى الاقاصي من بلاد الشام . فتنحدر مع انحدار الارض الانهار التي تنبع من الرشحات التي تحاقب المدينة ، والتي تروي مياهها جل أرض الشام ، والتي تنتهي شمالاً او جنوباً الى بحر الروم[1]

وجو المدينة صحي جاف لقربه من الصحراء من جهة ، ولوقوعه في سهل وسط سلسلتي جبال لبنان ، الشرقية شرق المدينة ، والغربية غربها

والمدينة تعتبر من أقدم مدائن الدنيا القديمة ورد اسمها بصيغة « بعل بقعوتو » في السريانية بمعنى بعل البقاع [2] . ويظهر أن العرب عربوها الى بعلبك ولا شك ان هذا التعريب حدث في عهد سحيق من الجاهلية ، فقد كان للعرب القدماء صلات وثيقة بسوريا . ومما يؤيد هذا الظن ان ذكرها ورد في العصر الجاهلي في بعض كلام الشعراء الجاهليين فوردت في قصيدة لامرىء القيس إذ يقول :

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

وقد ذكرها عمرو بن كلثوم كذلك في بيت ضمن معلقته حيث يقول :

وكأس قد شربت ببعلبك وأخرى في دمشق وقاسرينا

ولقد تقلبت الدنيا على المدينة بين رفع وخفض ، فبينما كانت تعتبر من مدائن الدنيا الزاهرة على عهد الفينيقيين ، وصل بها الحال في عهد حكم الأمراء بني الحرفوش من التدهور ، ان اصبحت بلدة صغيرة منزوية بين مدائن الشام ، حتى انهُ لم يكن بها عند احتلال المصريين لها في عام ١٨٣١ غير سبعة وعشرين بيتاً من المسيحيين ، وقليل من البيوتات الاسلامية ما بين سنية وشيعية [3]

(١) تاريخ بعلبك ، ص ٧ و ٢١ — ٢٤ (٢) المرجع ذاته ص ٤٦ و Encyc. d. Isl. مادة بعلبك
(٣) تاريخ بعلبك ، ص ١٠٧

على ان المسيحيين من أهل المدينة كانوا منذ أقدم العصور ينزلون في حيّ خاص بهم كان يعرف بحيّ النصارى ، وكان هذا الحيّ يقع جنوب المدينة لجهة الغرب ، وفيها « الحارة التحتا والحارة الفوقا والحارة البراية » وهذه الأخيرة كانت خارج السور الغربي للمدينة . ومعظم مباني البلدة كانت بدائية كمباني الدساكر في غير خامة ، وكان أصلحها للسكن وأفخمها بناء وأحسنها موقعاً المباني القائمة بحي النصارى [1] . وكان آل مطران في طليعة وجوه مسيحي المدينة ، وبيتهم كان خير بيوتات الحي المسيحي . وكان موقع البيت على مقربة من باب المدينة المعروف بباب الشام ، وكان على مقربة منها حدائق وبساتين وضياع يمتلكها بيت المطران ، كانت تمتدُّ في الوادي الى أبعد من حدود الطرف

في هذا البيت ولد خليل مطران في أوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، من أب من الأسرة المطرانية ومن أم يتصل نسبها بآل الصباغ . اما والد المطران فهو عبده مطران من مبرزي رجالات بعلبك ومن أصحاب الضياع والدساكر في وادي البقاع ومن المشتغلين بالتجارة . وكانت اراضيه ومتاجره تدر عليه ربحاً وفيراً . تزوج بوالدة الخليل في حيفا من مدائن سوريا الجنوبية . ثم استقرَّ بها في بلدته بعلبك وعاش معها ، وأنجبت هي منهُ أبناء بنين وبنات ، وكان منهم الخليل

كانت والدة الخليل من آل الصباغ ، أحدى الأسر العربية النصرانية النازلة سوريا الجنوبية في أرض فلسطين جهة حيفا وما صاقبها من الأراضي وكان والدها من أعيان حيفا . اما والدها لأبيها فكان من أبرز مساعدي الجزار أيام ولايته على عكا . غير ان سوء التفاهم وقع بين الجزار وبينهُ ، فتعرض لمخاطر باقامته بفلسطين . فاضطر ان ينزح الى لبنان وان يعيش فيها دهحاً من الزمن ، حتى بادت دولة الجزار ، ودالت أيامه . وقد نشأ أولاده في لبنان . ثم تفرقوا في أرض الشام ، وكان منهم واحد استقرَّ بحيفا واحتل فيها مكانة ، زفت احدى بناته الى عبده مطران ، احد فروع الأسرة المطرانية

وكان عبده مطران رجلاً بسيطاً في غير تكلف مبسوط اليد . نشأ متأثراً بجوّ أسرته ، فأخذ عنها تقاليدها وأخلاقها وبثها في محيط أسرته ، وبثها عن طريق هذا المحيط في ابنائه . أما والدة الخليل فكانت سيدة كاملة ذات شهامة . ربت أولادها تربية مثالية ، وكان يساعدها على هذا ، جو الأسرة بما بينها وبين بعلها من الوفاق والالتئام ، الذي كان يسبغ على العائلة جوًّا هادئاً ، ويجعلها تنصرف عن صغار الأمور الى بذل كل الجهد في تقويم أبنائها . من بنين وبنات بتربية صحيحة . وكان جو الأسرة يدفع الاولاد الى النشاط والحركة في غير صخب

(١) تاريخ بعلبك ، ص ١١ — ١٢ وعلى وجه خاص الفقرة الاولى من ص ١٢

ولا ضجيج ، والأم ساهرة من وراء ذلك كله تصلح من البيئة ، او قل تهيء الأسباب فيها الى الحدّ الذي يمكّن لها أغراضها في تقويم ابنائها وتربيتهم . وهذه التربية التي أخذت بها ابناءها جعلتهم يعتمدون على أنفسهم وعلى تعاملهم مع محيطهم معاملة تعتمد على الذات ، وهكذا عملت على ان تمهد لشخصياتهم السبيل للوضوح والاستقامة متقوّمة بذاتيتها . وكان لهذا أثره الفعّال في التكوين الخلقي لأبنائها [1] ، وتكييف نشأتهم وتقويم ذاتياتهم على نحو خاص

—٢—

ولد خليل مطران بمدينة بعلبك في شهر يوليو عام ١٨٧٢ [2] وعاش الخليل أيام طفولته الاولى مفصحاً بحركاته وأعماله عن مزاج عصبي أصيل وطبيعة ذات حيوية زائدة ومشاعر متقدة واحساسات زاخرة . وكان مظهر هذا المزاج وهذه الطبيعة من الطفل نشاط متصل عجيب وحركة متصلة الحلقات . ومع كل هذا النشاط والحركة اللذين كان يبدو بهما الطفل لم يكن محيطه الاجتماعي العائلي ليتداخل في نشاطه تداخلاً مباشراً . ولهذا كانت حركات الطفل حرة ، يقوم بها عن دافع نفسي داخلي ، وان كان لوالدته بعض الأثر في الحصول على الدافع او تكييفه بصورة خاصة عن طريق غير مباشر ، يتصل بتهيئتها البيئة العائلية على وجه يسمح لاثارة الدافع عند الطفل على الوجه الذي كانت ترغب فيه . ولما كانت حالة الطفل — خصوصاً في هذه الايام المبكرة من الطفولة — تحبب اليه انواع النشاط ، ليصرف بعض الجهد الذي يتكاثف وحيويته الزائدة ، فقد كان خليل مطران في تلك الايام كثير الحركة والفعل ، وكانت كثرة حركاته سبباً في ان تكثر معها عثراته . وكان المحيط الذي يتعامل معه يسمح له أن يتفهّم هذه العثرات ، ويقوم من كل عثرة معاوداً الكرة من جديد لتحصول على النتيجة التي يرغب فيها والتي تدفعه اليها بواعثه النفسية الاولية . وهكذا كان ترك الخليل في طفولته حرًّا في مواجهة محيطه البدائي يتعامل معه بحرية تامة ، سبباً في أن يخلص مع الزمن بخلة مؤصلة رسخت في نفسه ، وقامت مقام الطبيعة الأصيلة ، هذه الخلة هي : خلة المعاودة والمراجعة

ويمكنك ان تفهم طبيعة خليل مطران كلها على حقيقتها وتدرك شخصيته في تقمّصها الداخلي اذا لاحظت ان الطبع الاصيل من نفسه هو طبيعة الاقبال بقوة والاستجابة للأشياء بشدة وان طبيعة الاقبال الهادىء الذي يطالعك بها الخليل ، والاستجابة البطء للمؤثرات انما تأصلت في نفسه مع الزمن بحكم المعاودة والمراجعة . ومن هذين الشطرين المتقابلين والمتداخلين في

(١) خليل مطران — معلومات شخصية مستفاد بحديث مستفيض معه مساء يوم ٦ مايو ١٩٣٩ م بالاسكندرية . وكل ما استقيناه من خليل مطران نفسه سنشير اليه في الهوامش بعبارة — عن خليل مطران —

(٢) أبو شادي في اصداء الميلاد ، يقول ان مطران ولد سنة ١٨٧١ — انظر ص ١١ — وقد جارته كل المصادر الافرنجية في هذا التاريخ . غير ان خليل مطران صحح هذا التاريخ بأنه من مواليد صيف عام ١٨٧٢

شخص الخليل ، تكونت ذاتيته على نمط خاص : شدة في الحساسية وزخور في الشاعر وترسل مع التروات ، ثم محاسبة دقيقة للنفس وبواعثها وتزواتها ، مهدت السبيل للخليل ان يخلص ببناء ذاتيته على النمط الذي يبدو عليه [1]

فاذا لاحظنا ان المحيط العائلي للخليل ، كان آخذاً بنظام من التربية امتزج فيه طرف من نظام التربية التركية التي تقوم على التضييق والتقييد مع طرف من نظام التربية العربية البدوية التي تقوم على الانطلاق والتحرر ، كان لنا من هذا كله ، ما يمكننا من ان نمثل في اذهاننا صورة — تقريبية — للجو الذي نشأ فيه الخليل وترعرع فتأثر فتكيفت تبعاً لهذا التأثر نفسيته وتقومت تبعاً لها شخصيته

كان نظام التربية الذي أخذ به الخليل يختلط فيه نصف من التضييق والتقييد ، بنصف من الانطلاق والتحرر . وكان جانب التقييد في التداخل في أمر البيئة العائلية وتكيفها على النمط الذي يجعل الأطفال يتعاملون معها على الوجه الذي يرغب فيه الأبوان عادة . اما جانب الحرية فقد كان في اطلاق الأمور للأطفال يتعاملون مع بيئتهم في حرية تامة . وكان مظهر هذا التعامل الحر مع البيئة أن يتداخل الخليل مع اخوته واقرانه من الاطفال يلعبون في حرية ، لا تقيدها رغائب الأبوين . وان كانت عين الأم تسهر عليهم ولا تغيب عنها ، وقد خلص الخليل من هذه السنين بطبيعته الاجتماعية التي تميل الى خلق جملة صلات اجتماعية — une somme de rapports sociaux — مع الناس ، وهذه أظهر صفة في نفس الخليل في الحياة الاجتماعية التي عاشها كرجل اجتماعي يعيش في المحيط الشرقي الفردي المتصف بصفة الانعزال وهكذا يمكننا ان نفهم في شيء من الحدس الصادق أيام الطفولة التي عاشها الخليل على وجهها الصحيح

أخذ الخليل ينمو ويترعرع ويقطع سني الطفولة . وما بلغ من العمر حداً يسمح له بالخروج مع أفراد أسرته حتى هوى ركوب الخيل وقام في نفسه ميل الى ان يجاري آله في السباق على متونها في المضمار . غير ان ركوب الخيل لم يكن من السهولة في مكان . وقد كان دونه لتق عقبات ، ولكن عزم الغلام وما كان اظهره من الرغبة الملحة والارادة الصادقة والعزم القوي جعلت الغلام يتغلب على كل الصعاب . واذا به يجري مع الكبار في المضمار يسابقهم ويسابقونه ، ولكن قرب عهد الغلام بالطفولة واحلامها وبعض الشيء من طيش الصبا ، كانا يدفعانه وهو راكب جواده الى القيام بحركات صعاب ومغامرات في الجري والسباق . ولم تكن تسلم نتائج حركاته ومغامراته كل مرة فكان كثيراً ما يتردى عن جواده ويسقط من على ظهره . وكان والداه ينصحانه

(١) يقول مطران : في المعاودة وعدها تترجم تكوين شخصيتي ، فقد كان هنالك عاملان يتعاونان في تنمية شدة الحساسية ومحاسبة النفس ، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص

ولكنه لم يكن لينصح ويستمع الى صوت العقل في كلام ابويه ؛ فقد نشأ يتصرف طبق هوى نفسه ويتحرك وفق رغباته وما يصور له عقله . ولم يجد والده وقد رأى من غلامه ما يتعرض له من الاخطار الا ان يفكر في الاستفادة من شدة حيوية الغلام ونشاطه في تعليمه وتثقيفه . فقد كان المحيط العام في ذلك الحين يدفع الآباء الى تعليم أولادهم وتثقيف ابنائهم . فقد انتشرت المدارس في ارجاء الشام وعمرت البلاد موجة تدفع الناس الى تمكين أبنائهم من الانتهال من ورد العلم . وحدث ان خرج الغلام يركض بجواده ويسابق اعمامه وأقرانه . واذا بزمام الجواد يفلت من يده فيسقط ، فتتكسر بعض ضلوع صدره . ويرى والده ان الوقت قد ازف لتعليمه فما يتماثل للشفاء حتى يرسل به الى زحلة ليتعلم فيها اصول الكتابة والقراءة

***

انتقل الغلام الى زحلة وهناك في مدرسة اولية اخذ يتعلم مبادىء الكتابة وأصول الحساب. وظل الغلام فترة من الزمن يتلقى علومه الاولية في زحلة في قابلية على الدرس حتى اوفى على التمام فأرسله والده الى بيروت وألحقه بالقسم الداخلي من الكلية البطريركية ، وظل الغلام بالمدرسة ردحاً من الزمن حتى بلغ السابعة عشرة . ثم تخرج من الكلية وقد فاز بحصول ثقافي في العلم والادب واللغة يوازن ما يفوز به الآخرون في اضعاف السنين التي درسها . وقد وجد الفتى في التعلم ما يرضي رغائبه وفي القراءة ما يشبع نوازع نفسه . فتهالك على التعلم وأدمن القراءة بنهم عجيب ، لا يترك كتاباً يقع تحت يده الا ويلتهمه التهاماً . وقد كان يساعده في ذلك تفتح نفسيته للمعرفة واقباله بنشاط عجيب على الدرس والتحصيل.

وتخرج الفتى من الكلية بعد ان تثقف ثقافة عربية خالصة من جهة واتصل بالثقافة الاوربية اتصالاً تاماً من جهة اخرى. وكان من مقومات تثقفه ثقافة عربية ان مدرسه في الصف كان الشيخ ابراهيم اليازجي امام اللغة في عصره . وعنه أخذ اللغة العربية والثقافة العربية الخالصة . على ان الشيخ ابراهيم اليازجي ان ازجى به الى ميدان الادب العربي البحت ، فقد كان اتصال الفتى بالآداب الفرنسية بالكلية سبباً في ان تتفتح نفسه عن آفاق جديدة من الحياة والشعور ، لم يجد ما يكافئها في الأدب العربي الخالص ومن هنا اعتقد الفتى وهو ابن ثمانين ، ان المستقبل في الأدب العربي ، ليس للنماذج التي تذهب تحاكي طرائق القدامى في المعاني والأشكال ، والمشاعر والصور ، وانما للنماذج التي تعبر عن روح العصر وخلجاته ومشاعره وانجاهاته في قالب عربي رصين . وحاول مطران ان يطرق الأدب ، خصوصاً في ساحة الشعر على هذا الاعتبار ، فنظم عدة قصائد ، وهو في الصف النهائي من الكلية ، نجد نموذجاً منها في أول ديوانه موسومة بالتاريخ

« ١٨٠٦ — ١٨٧٠ » اشارة الى معركة يينا ودخول الألمان باريس [1] وقد لاقى مطران لاتهاجه هذا النهج الكثير من الاعتراضات خصوصاً في محيطه المدرسي من أساتذته ، وعلى وجه خاص من الشيخ ابراهيم اليازجي ، الذي قال له : « كيف يجوز ان يرد في شعرك العربي لفظ نابليون ؟ » ومثل هذه العقلية المحافظة كان مطران يلاقي الاعتراضات الأولى في حياته بخصوص النهج الجديد الذي حاول ان يأخذ نفسه به في نظم الشعر

كان العهد الذي أخذ فيه خليل مطران ينظم الشعر من النهج الجديد، خاضعاً لموحيات العصر القديم : فقد كان سرين الشعر — شعر الفحول المطبوعين من شعراء العربية الخلص في العصر الأموي والعباسي، والمشهود لهم بالسبق في الشاعرية — بين أيدي المتأدبين على أثر قيام الطباعة في الشرق الادنى والاهتمام بطبع دواوين شعر الفحول سبباً في احياء الشعر العربي وديباجته الجزلة . وكان يساعد على ذلك أحياء اللغة العربية الخالصة من شوائب العجمة . وكان كل هذا يمهد السبيل لتدور الشاعرية على الاغراض القديمة التي دار عليها الشعر العربي القديم . غير ان مطران الذي تفتحت عينيه على آفاق جديدة من الحياة والشعور في الآداب الاوربية ، ولمس قوة حركة التجديد في الأدب التركي بجهود شناسي وضيا باشا ونامق كمال وعبد الحق حامد ، أدرك ان الحياة التي تدور في عصره غير الحياة التي كانت تدور في العصور السالفة ، وان الاغراض التي يقول فيها الشعر ، شعراء العرب الاقدمون لا تلزم شعراء عصره وهو في هذا يقول :

« اللغة غير التصور والرأي ، وان خطة العرب في الشعر لا يجب حتما ان تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وظروفهم ، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وظروفنا ، ولهذا وجب ان يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم » (٢)

وعلى هذا الاساس جعل الشاعرية شيئاً يدور حول روح العصر ، وجعل البيان الشعري شيئاً مرناً وليس بالشيء الجامد الذي له رسم خاص، يدور مع العصر ويتطور مع تطور الزمان ، وان كان يتقوم في كل هذا بالمبادىء الاولى الثابتة

غير ان نشأة مطران متصلا بالثقافة العربية الخالصة من جهة وتلمذته على امام اللغة الفصحى الشيخ ابراهيم اليازجي من جهة اخرى ، مكن لقدمه في اللغة العربية وجعله راسخ العلم فيها وما كان في مستطاع مطران ان يخرج على اوضاع اللغة العربية من حيث سرت في نفسه اوضاعها تقالتها لهذا اضطر مطران ان يقول الشعر في الاغراض الجديدة ولكن مصبوبة في القوالب

(١) ديوان الخليل ص ٩ — ١١ والقصيدة منظومة عام ١٨٨٨ و Brockelmann في Gesch. d. Arab. Literatur ملحق الجزء الثاني Leiferung فقرة ١٠ ص ٨٦ — ٩٦

(٢) المجلة المصرية ، م ١ ج ٣ ص ٨٥ والبحث الثالث فقرة ٣ من هذه الدراسة

العربية الخالصة . ولكن حركة الجديد التي أخذ بها مطران لم تكن لتستساغ عند المتقفين من جمهور العربية . وقد تكونت اذواقهم على غرار عربي محض ، فاضطر مطران ان ينظم الشعر في الاغراض القديمة ، ولكن تشعر في روحها شيئاً من الحياة الجديدة التي تتحت في جنباتها شاعرية مطران . ذلك ليثبت للناس انهُ ما يقول الجديد عن عجز عن القديم ، ولكن نزولاً على روح العصر

— ٣ —

نظم خليل مطران في الفترة التي انقضت بين عام ١٨٨٨ وعام ١٨٩٠ بعض القصائد على النسق القديم الذي كان شعراء العرب ينظمون الشعر على غراره . وكان حديث العهد في التخرج من الكلية غير انهُ اكتسب شهرة واسعة في بيروت ، وكانت حاضرة الادب والعلم والفن في كل القطر السوري ولبنان ، ومن أعظم حواضر الثقافة في الشرق في ذلك العصر . ولم يكن ينازع مطران الشهرة من أقرانه غير الامير شكيب ارسلان الذي كان حديث التخرج من كلية الحكمة والياس صالح الذي تخرج من الكلية الاميركية

وكان نشاط مطران العظيم قد اخذ يظهر في ميدان الحياة الاجتماعية ببيروت ، واشتهر مطران بالشعر الثوري ، الذي كان يقوله ضد الاستبداد الحميدي فاتهم بأنهُ يسعى للثورة وأوقف ، ولكن الحكومة العثمانية لم تعثر على مستندات كتابية وقرائن قوية تدينه بها فأطلقت سراحه ولكن أخذت تضايقهُ . في ذلك الوقت أصيب مطران بداء « ذات الجنب » وأشرف على الهلاك ، وكان يعوده في ذلك الحين الدكتور فان ديك الشهير ونجا مطران بأعجوبة من الهلاك ، وما استرد قواه حتى رأى أهله ان يغادر سوريا الى الخارج تخلصاً من مضايقات الحكومة فعزم على السفر الى باريس

وفي صيف عام ١٨٩٠ خرج مطران من بيروت ووجهته باريس . ووصل اليها وأقام فيها ردحاً من الزمن ، بعد ان عرج في طريقه اليها على الاسكندرية لبضة أيام (١)

وانتمى مطران من سفره الى باريس ، وأقام فيها ردحاً من الزمن ، متصلاً برجال الحركة الوطنية التركية في باريس ، من أعضاء حزب « جون تورك — تركيا الفتاة — » ، وقد لاقى مطران في باريس زعيمهم أحمد رضا بك الذي انتخب فيما بعد رئيساً لمجلس المبعوثان التركي ، وكانت لمطران جلسات مع رجال — جماعة تركيا الفتاة — في مقهى السلام Café de La Paix

(١) صحيفة المصري ، ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٦ ص ٣ ع ١ ؛

وكان نشاط مطران في باريس سبباً في ان يثير شكوك رجال السفارة التركية الذين دسوا له عند الحكومة الفرنسية ، وهكذا شعر مطران للمرة الثانية بالتضييق من جهة السلطات التركية

في ذلك الوقت فكر مطران في ان يهاجر الى شيلي بأميركا الجنوبية ، وكانت حكومة شيلي قد جعلت امتيازات مغرية للمهاجرين . فكانت تقطع لهم الاراضي الواسعة وتعفيهم من الضرائب والمكوس لأعوام وتساعدهم على استغلال الأرض . واكبّ مطران لهذه الغاية على تعلم اللغة الاسبانية والأمل يحدوه ان يتمكن من الهاجرة الى شيلي ، ولكن حدث ما صدفهُ عن هذه الوجهة ، وجعله يولي وجهته نحو مصر فيرحل اليها في صيف عام ١٨٩٢ ، فتربطهُ الظروف لمصر فيستقر بها [1]

كانت حياة مطران في باريس نشاطاً متصلاً ، في سبيل الدرس والتزود من آداب الافرنج من جهة والجهاد في سبيل الدستور وتحرير العناصر التي في الدولة العثمانية من جهة أخرى . ولقد اتصلت الأسباب بين نفس مطران في تلك الفترة وبين شعر « الفرد دي موسيه » ؛ فقد فتن مطران ، وهو في عنفوان الشباب ، وشاعره في فورة اتقادها بزخور الاحساسات وعمق المشاعر التي يتميز بها شاعر الفرنسيين الرومانسي ، ومن هنا كان وقوعه تحت تأثير موسيه مما يظهر بعد في القصائد الاولى من ديوانه

وكان مطران قد خلص من أيام دراسته والسنين التي أعقبتها في سوريا بثقافة أدبية يشوبها القليل من الثقافة العلمية . فقد كان له اطلاع على العلوم الرياضية والفلكية وشؤون علم الفزياء والكيمياء والحياة والحيوان ، وكانت هذه الثقافة العلمية يخالطها اطلاع على الفنون كتواريخ الأمم وفلسفات الشعوب ، ومن هذه الثقافة الخليطة التي يغلب عليها الاتجاه الأدبي كان مطران يتخذ اللبنات الأولى لتفكيره

وكانت طيبة المعاودة والمراجعة في الفتى تزجيه الى درس آداب مختلف المدارس الأدبية الافرنجية عن طريق اللغة الفرنسية ، وهو مما يصدف عن بعض الالوان من الآداب وبعض المدارس الأدبية بدافع نفسي ، فانهُ كان يكره نفسه على الدرس والتعمق في البحث ، وبهذا وحده خلص مطران بثقافة أدبية كاملة تنطوي على كل المذاهب الأدبية التي عرفها تاريخ الآداب الى عهده

وكانت معرفة مطران بالتركية والانكليزية ، سبباً في ان يحاول الاطلاع على آداب الاتراك والانكليز في لغاتهم الاصلية فقرأ لأعلام المدرسة الجديدة في تركيا ما كتبوه من الشعر وما اخرجوه من المسرحيات والآثار الأدبية . وتأثر بعطا نعائه ، وعلى وجه خاص بآثار نامق كمال وتاجي واكرم وحامد من أعلام الأدب التركي ، كما انهُ اطلع على آداب الانكليز اطلاعاً سريعاً في تلك الأيام

(١) هذا الكلام تصحيح في الرسم لما رواه لنا توفيق حبيب . والاصل في هذا التصحيح كلام مطران نفسه

وان عاد اليها في الطور الثاني وأوائل الطور الثالث من عمره يمعن في مطالعتها ويحاول ان ينقل بعض روائعها الى العربية. ومهما تكن حقيقة هذا الطور من حياة مطران، فلا شك في أنه طور استعداد وتهيؤ واستجماع للاسباب. ولم يظهر من مطران من مظاهر النشاط الأدبي غير بضع قصائد من الطريقة القديمة في النظم، قال جلها في أغراض تورية ومناسبات عارضة، ولم يسجل منها غير قصيدته « ١٨٠٦ — ١٨٠٧ » المثبتة في صدر ديوانه (١)

تبدو شاعرية مطران في الطور الأول وان كانت متقومة بطرائق القدامى في نظم الشعر واضحة الخطوط ظاهرة المعالم. وأول شيء يطالعك من شعره مطاوعة الانفعال الشديد للاستجابة الحادثة التي تجعل للذهن مجالاً للتدخل لتصفية ألوان الاحساس وضبط المشاعر والعمل على تناسب الخطوط بين الصورة من حيث كلها وسكبها وبين الاسلوب من حيث الوضوح والجزالة. وطبيعة المعاودة من نفسه كانت تعطيه الوقت للعناية بالتفاصيل والجزئيات، ومن هنا كان شعره يخرج معبراً عن فكرة مطردة تصاحبها مشاعر متسقة واحساسات مسترسلة تصاحب الفكرة. وانت يمكنك ان تلمس هذا الاصل في شعر مطران منذ الطور الاول من حياته، تلمسه بوضوح في قصيدته عن « بيتا وفتح باريس » ولكن الغرض الاتباعي طغى على معظم مواقف القصيدة فحاول ان يخفت من صوت مشاعره. ولكن الخلجات التي تطالعك من القصيدة لا تجعلك تشك في صحة المقررات التي لمرضها، خصوصاً اذا نظرت الى قوله في هذه القصيدة :

لبروسيا في أرض « بانا » عسكر ... بحر (٢) شديد اليأس واني الزاد
وخيامه في الافق ماثلة على ... ترتيب سلسلة من الاطواد
نفرت طلائعه منذ انضحى ... تترقب الاعداء بالرصاد
فأتوا كما يجري الآتي (٣) مشحياً ... في غير مجرى مائه المعتاد
وكأن نابليون في اثراره ... علم على علم الزعامة باد
الجد رهن اشارة يمينه ... والنصر بين يديه كالمنقاد
والفخر في رايائه متمثل ... وطلائع الشبان في ازدياد
فهيأ الالسن لاستقباله ... كالخائط المرسوس من أجياد
وعلا هتاف مازجته غمائم ... من سل أسلحة وركض جياد
ورعين آلات تكاد تظنها ... متجاوبات العزف بالايعاد
حتى اذا كل الشاد تناذروا ... بالنار ذات السبرق والارعاد
شهب ضخام آلبات والردى ... بسعيرهن ومثلهن غواد
تلق الرجال على الثرى تتلى كما ... يلقى السنابل منجل الحصاد
لله درهم وقد حمي الوغى ... فتهاجموا كتهاجم الآساد
تدعو الجراءة أختها بصدورهم ... والسيف يلثم السيف في الاجياد
واذا التقى بطلان لم يتجندلا ... الا معاً من شدة الاحقاد
واذا جواد خر فارسه دنا ... بصهيله ذا حساجة بجواد

(١) يوجد بعض الشعر لمطران في الصحف والمجلات العربية التي صدرت لي الفترة بين عام ١٨٨٧ — ١٨٩١ وهي تمثل الطور الاول من شعر مطران، غير ان هذا الشعر أنكره مطران فلم يسجله في ديوانه
(٢) جرار (٣) السيل

والموت في الجيشين غير مجامل يجتاح بالازواج والافراد
يطوي الصفوف ويترك الدم اثره فكأنه فلك بحر تباد
ما زال يفتك والنفوس زواهق وكأنت تلك هنية الميعاد
حتى تولى الدهر حين يروعنا تتغرغر بين انفاس بداد
فمشى الفرنسيون في آثارهم وزراتهم لا يخطئن حداد (١)
واستفتحوا برلين وهي منيعة وقضم بها الايام كالاعياد

فهذا الوصف لا يكذب قارئه ما تراه فيه من تصفية ألوان الإحساس وضبط المشاعر والعناية الكلية بتفاصيل الواقعة ، والعرض لها ولصورها الحسية في شكل يجلوها بمشهد منك واضحة من الاسلوب الإتباعي الذي كان شعراء العرب يقولون الشعر استناداً اليه

خاتمة

نلخص القول في الطور الأول من حياة مطران ، وهو طور النشوء والبناء للطور الثاني واستجماع الأسباب لظهور فيه ، بأنه كان بما يحتويه من الظروف والاحوال من المهيئات لمطران لحمل شعلة الإبداعية في الشعر العربي الحديث في الطور الثاني من حياته. وقد خلص مطران من هذا الطور بمقومات شخصيته التي تكاملت في الطور الثاني ، وكان أهم الأسباب التي تقومت بها شخصيته من هذا الطور طبيعة المعاودة التي خلص بها عن طريق التعامل الحر مع محيطه وبيئته ، وخلة الحيطة التي تقومت بطبيعة المعاودة التي تأصلت في نفسه. وطبيعة المعاودة من نفسه كانت تدفعه لعناية بتفاصيل الامور وجزئياتها ، من حيث تجعله يعيد الكرة بعد الكرة على الشيء الواحد . فينتزع منها مجموع أشكالها وينزل منها الى مقوماتها من الجزئيات والتفاصيل

وهذه العناية بجزئيات الاشياء وتفاصيلها كانت تسيغ على نظره ، الوجهة الموضوعية . والنظر الموضوعي كان يجعل مشاعره تلبس صورها من عالم الموضوع. ولكونها تحمل في طياتها التفاصيل والجزئيات كانت تمثل للذهن شبحاً بتهاويلها وصورها وتصاويرها ومن هنا يتقوم الاصل الموضوعي في شعر الخليل

وتعامل الخليل الحر مع بيئته جعله يخلص بروح ضمانية تأنس للجماعة وتتعامل معها وتشارك الجماعة مشاعرها من آلام ومسرات ومن أحزان وأفراح ، غير ان تعامل الخليل مع أفراد الجماعة في حيطة ، نتيجة ما خلص به من طبيعة التريث التي خرج بها من المعاودة والمراجعة

وهكذا يمكننا ان نفهم طبيعة الخليل والاسباب التي تقومت بها والصور التي لبستها في الطور الاول من حياته

(١) عزائم ماضية كحدود السيف غير أنها لا تنل